

خطب معالي الشيخ أ.د. عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس

إمام وخطيب الحرمين الشريفين والرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي

نَهْلٌ وَارْتِشَافٌ مِنْ مَعِينِ سُورَةِ (ق)

الْحُطْبَةُ الْأُولَى:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ كِتَابَهُ الْكَرِيمَ؛ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، وَعِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَرَحْمَةً وَمَوْعِظَةً
لِلْمُؤْمِنِينَ، وَنَبْرَاسًا لِلْمُهْتَدِينَ، وَشِفَاءً لِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ، أَحْمَدُهُ تَعَالَى عَلَى آلَائِهِ، وَأَشْكُرُهُ
عَلَى نِعَمَائِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَحْيَا بِكِتَابِهِ الْقُلُوبَ، وَزَكَّى بِهِ النُّفُوسَ،
هَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ بِهِ مِنَ الْغَوَايَةِ، وَذَكَرَ بِهِ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ، الَّذِي كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، فَصَلَّاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، الَّذِينَ كَانُوا
لَا يَتَجَاوَزُونَ عَشْرَ آيَاتٍ حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ^(١)، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ جُنْدِهِ
وَحِزْبِهِ، وَمَنْ تَرَسَّمَ خُطَاهُ وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِ، مَا تَعَاقَبَ الْجَدِيدَانِ، وَتَتَابَعَ النَّيِّرَانِ، وَسَلَّمَتْ تَسْلِيمًا
كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ:

فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، اتَّقُوا اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَاشْكُرُوهُ عَلَى مَا هَدَاكُمْ لِلْإِسْلَامِ، وَجَعَلَكُمْ
مِنْ أُمَّةِ الْقُرْآنِ، الْمُعْجِزَةِ الْبَاهِرَةِ، وَالْآيَةِ الظَّاهِرَةِ، كِتَابِ الْهُدَى، وَسِرِّ السَّعَادَةِ وَالْقِيَادَةِ، وَلِوَاءِ
الرِّيَادَةِ وَالسِّيَادَةِ، وَإِمَامِ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ وَالْفَضِيلَةِ، وَدُسْتُورِ الْعَدْلِ وَالْأَمَانِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ،
﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

أُمَّةِ الْقُرْآنِ، إِنَّ سَعَادَةَ الْبَشَرِيَّةِ، وَعِزَّ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَصَلَاحَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ مَرْهُونٌ بِاتِّبَاعِ هَذَا
الْكِتَابِ، فَإِنْ كَانَ لِلْأُمَّةِ قَائِدًا وَإِمَامًا نُصِبَ الْأَعْيُنِ وَبَيَّنَّ الْأَيْدِي؛ حَصَلَتْ لَهَا سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ،
وَنَجَاةُ الْحَيَاتَيْنِ، وَإِنْ كَانَ خَلْفَ الظُّهُورِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - عَمَّ الدُّلُّ وَالشَّقَاءُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَى.
لَوْ وَقَفَتِ الْأُمَّةُ تَحْتَ رَايَةِ الْقُرْآنِ، وَتَفَيَّاتِ ظِلَالِ دُوحَةِ الْفُرْقَانِ؛ لَسَمَتْ سَمَاءَ الْمَجْدِ،

(١) انظر: «مسند أحمد» (٥/ ٤١٠)، و«تفسير الطبري» (١/ ٦٠).

وَتَبَوَّاتٌ مَكَانَةَ الْعِزَّةِ وَالشَّرَفِ وَالْقُوَّةِ، وَلَوْ أَنَّهَا حَافِظَتْ عَلَيْهِ، وَعَمِلَتْ بِمَا فِيهِ؛ أَضَاءَتْ لَهَا الْمَسَالِكُ، وَتَفَتَّحَتْ لَهَا الْمَدَارِكُ، وَلَوْ تَدَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَوَقَفُوا عِنْدَ آيَاتِهِ، فَاحْلَوْا حَالَهُ، وَحَرَّمُوا حَرَامَهُ؛ لَحَقَّقُوا السَّعَادَةَ عَاجِلًا وَآجَلًا.

إِخْوَتِي فِي اللَّهِ، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩)، وَأَنْكَرَ الْمَوْلَى -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- عَلَى الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْ كِتَابِهِ، فَلَا يَتَعَطُّونَ وَلَا يَتَدَبَّرُونَ، اسْتَمِعُوا إِلَى قَوْلِهِ -تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤)؛ وَلِذَلِكَ كَانَتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثْرَةَ مُوعِظَةِ النَّاسِ بِهَذَا الْقُرْآنِ، بَلْ كَانَ -عَلَيْهِ صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ- يَخْطُبُ النَّاسَ بِهِ، كَمَا أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَمُسْلِمٌ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَغَيْرُهُمْ، عَنْ أُمِّ هِشَامِ بِنْتِ حَارِثَةَ بِنِ النَّعْمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: « مَا أَخَذْتُ ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (١) [ق: ١] إِلَّا عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَقْرُؤُهَا كُلَّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ عَلَى الْمِنْبَرِ إِذَا خَطَبَ النَّاسَ » (١).

يَا إِخْوَةَ الْإِسْلَامِ، وَيَا أَهْلَ الْقُرْآنِ، مَا أَجْمَلَ أَنْ نَعِيشَ لَحَظَاتٍ فِي ظِلَالِ هَذِهِ السُّورَةِ، نَتَدَبَّرُ آيَاتِهَا، وَنَتَأَمَّلُ عِظَاتِهَا، وَنَقِفُ عِنْدَ عَجَائِبِهَا؛ إِحْيَاءً لِهَذِهِ السُّنَّةِ الَّتِي انْدَثَرَتْ أَوْ كَادَتْ، فَلَمْ يَكُنْ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لِيَخْطُبَ النَّاسَ بِهَا، وَيُرَكِّزَ عَلَيْهَا فِي مَجَامِعِهِمْ، وَيَقْرَأَهَا فِي الْفَجْرِ، وَالْجُمُعِ، وَالْأَعْيَادِ؛ إِلَّا لِمَا لَهَا مِنَ الشَّانِ وَالْمَكَانَةِ، إِنَّهَا سُورَةٌ عَظِيمَةٌ رَهِيْبَةٌ، شَدِيدَةُ الْوَقْعِ بِأُسْلُوبِهَا وَحَقَائِقِهَا، تَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ، تَهْزُ النُّفُوسَ هَزًّا، وَتُثِيرُ فِيهَا الْخَوْفَ مِنَ اللَّهِ، وَتَوْقِظُهَا مِنَ الْغَفْلَةِ.

فَعَسَى أَنْ نُلْقِيَ نَظْرَاتٍ، تَصْحَبُهَا عِبْرَاتٌ مِنْ قَضَايَا هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ، وَصُورِهَا الْمُتَعَدِّدَةِ، فِي الْحَيَاةِ وَالْإِحْتِصَارِ، وَالْمَمَاتِ وَالْبُعْثِ وَالْحَشْرِ وَغَيْرِهَا، ﴿تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (٨) [ق: ٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، لَقَدْ ابْتَدَأَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ بِالْإِنْكَارِ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ الْمُنْكَرِينَ لِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ -

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤٣٥ / ٦)، ومسلم في «صحيحه» (٨٧٣)، وأبو داود (١١٠٢).

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - الْجَاهِلِينَ لِلْبُعْثِ وَالْحِسَابِ يَقُولُهُمْ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [٣: ٣].

فَبَيَّنَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - أَنَّهُمْ لَمَّا كَذَّبُوا بِالْحَقِّ؛ التَّبَسَّ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [٥: ٥]، قَدْ اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِمُ الْحَقَائِقُ، وَعُمِّيَتْ عَلَيْهِمُ السُّبُلُ، هَكَذَا كُلُّ مَنْ حَادَّ عَنِ الْحَقِّ تَتَقَادَفُهُ الْأَهْوَاءُ، وَتَمَزُّقُهُ الْحَيْرَةُ، وَتُقْلِقُهُ الشُّكُوكُ، لَقَدْ جَاءَ صَدْرُ هَذِهِ السُّورَةِ لِيُعَالِجَ قَضِيَّةَ عَقْدِيَّةٍ مُهِمَّةً، أَلَا وَهِيَ: قَضِيَّةُ الْبُعْثِ وَإِنْكَارِ الْكُفَّارِ لَهُ، بِأَسْلُوبٍ يُذِيبُ الْقُلُوبَ وَيُرَفِّقُهَا، وَيُقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَى الْمُعَانِدِينَ، وَيَلْفِتُ أَنْظَارَهُمْ إِلَى بَدِيعِ خَلْقِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ، وَالْجِبَالِ وَالْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [٦: ٦] وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [١١: ٦ - ١١].

ثُمَّ يَأْتِي السِّيَاقُ بِعَرَضٍ صَفْحَةٍ أُخْرَى تُذَكِّرُ الْقُلُوبَ بِمَصَارِعِ الْغَابِرِينَ، وَأَحْوَالِ الْمُكَذِّبِينَ السَّابِقِينَ، الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ وَعِيدُ اللَّهِ بِعَذَابِهِ وَنَكَالِهِ بِهِمْ، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ [١٢: ١٢] وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [١٢: ١٢ - ١٤].

وَتَمْضِي السُّورَةُ مُسْتَطَرِدَّةً مَعَ قَضِيَّةِ الْبُعْثِ، مُذَكِّرَةً الْإِنْسَانَ بِخَلْقِ اللَّهِ لَهُ، وَعِلْمِهِ بِهِ، وَقُرْبِهِ مِنْهُ، وَأَنَّهُ - سُبْحَانَهُ - يَعْلَمُ وَسَاوِسَ النَّفْسِ، وَخَلَجَاتِ الضَّمِيرِ ﴿١﴾، فَضلاً عَنِ الظَّاهِرِ الْمُبِينِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ فَفَسَّهٗٓ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [١٦: ١٦] إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [١٦: ١٦ - ١٨].

ثُمَّ تَأْتِي الْمَشَاهِدُ الْمُرْعَبَةُ بِأَسْلُوبٍ رَهِيْبٍ مُخِيفٍ، يُرْجِّحُ الْأَفْتَدَةَ رَجَاءً، مُبْتَدِئًا بِمَشْهَدِ الْمَوْتِ

(١) خَلَجَاتِ الضَّمِيرِ: وَسَاوِسُهُ وَمَا يَجِيشُ بِهِ. انظر: «اللسان» (خلج).

وَسَكَرَاتِهِ، ثُمَّ مَشْهَدُ الْحِسَابِ وَعَرْضُ الصُّحُفِ، ثُمَّ مَشْهَدُ جَهَنَّمَ - أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهَا - فَاعْرِضْ فَاهَا تَتَلَمَّظُ، كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا وَقُودُهَا مِنَ النَّاسِ تَقُولُ: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ ﴿٣٠﴾ [ق: ٣٠]، نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ وَعَذَابِهِ، وَأَلِيمِ عِقَابِهِ!

وَبِجَانِبِ ذَلِكَ مَشْهَدُ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا - جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَهْلِهَا!

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]، إِنَّهَا سَكْرَةُ فِرَاقِ الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْمَنْصِبِ، ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتُمْ مِنْهُ نَجِئِدُ﴾ ﴿١٩﴾ [ق: ١٩] وَتَهَرُّبُ، وَلَكِنْ لَا مَفَرَّ مِنَ الْمَوْتِ وَلَا مَهْرَبَ، وَمِنْ سَكْرَةِ الْمَوْتِ إِلَى وَهْلَةِ الْحَشْرِ وَهَوْلِ الْحِسَابِ، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ [ق: ٢٠ - ٢١]، وَفِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْعَصِيبِ يُقَالُ لَهُ: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ﴿٢٢﴾ [ق: ٢٢].

وَيَكْشِفُ السَّيَاقُ عَنْ جَانِبٍ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ، ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ ﴿٢٣﴾ [ق: ٣٠]، اللَّهُ أَكْبَرُ! يُحْضِرُ الْمَلَائِكَةَ ﴿كُلُّ كَفَّارٍ عِنْدَ﴾ ﴿٢٤﴾ مَنَاعٍ لِلْحَيْرِ مُعَدِّ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ [ق: ٢٤ - ٢٥]، فَيَقْدِفُونَ - مَعَ كَثَرَتِهِمْ - فِي جَهَنَّمَ تَبَاعًا، فَتَفْتَتِهِمْ رُكَّامًا، ثُمَّ تَنَادَى جَهَنَّمَ: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ وَاكْتَفَيْتِ؟! وَلَكِنَّهَا تُجِيبُ جَوَابًا يَرُوعُ الْقُلُوبَ، وَيَهْزُ النُّفُوسَ: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]!

فِيَالَهُ مِنْ هَوْلٍ شَدِيدٍ، وَرُغْبٍ أَكِيدٍ؛ يَبْعَثُ أَهْلَ الْقُلُوبِ الْحَيَّةِ عَلَى الْأَخْذِ بِأَسْبَابِ الْوِقَايَةِ مِنْهَا!

وَيُقَابِلُ هَذَا الْمَشْهَدَ الْمُرْعَبَ مَشْهَدُ الْجَنَّةِ تَقَرُّبُ مِنَ الْمُتَّقِينَ: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ [ق: ٣١ - ٣٥].

ثُمَّ تُخْتَمُ السُّورَةُ بِتَأْكِيدِ الْقَضَايَا السَّابِقَةِ، وَلَكِنْ بِأَسْلُوبٍ جَدِيدٍ؛ لِيَكُونَ أَكْثَرُ وَقْعًا، وَأَشَدَّ تَرَكِيزًا، فِيهِ لَمَسَاتُ التَّارِيخِ، وَمَصَارِعُ الْهَالِكِينَ، وَفِيهِ الْإِشَارَةُ لِبَعْضِ الْحَقَائِقِ الْكُونِيَّةِ، وَفِيهِ التَّذْكِيرُ بِحَقِيقَةِ الْبُعْثِ وَالنُّشُورِ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ

شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ [ق: ٣٧]

وَبَعْدُ، يَا أُمَّةَ الْقُرْآنِ، هَذِهِ وَقَفَاتٌ سَرِيعَةٌ، وَنَظَرَاتٌ خَاطِفَةٌ، فِي سُورَةٍ مِنْ أَعْظَمِ سُورِ الْقُرْآنِ، فَأَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِي تَعِي كَلَامَ اللَّهِ وَتَتَدَبَّرُ آيَاتِهِ؟ أَيْنَ: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]؟!

الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ أَنْ تَكُونَ الْقُلُوبُ -وَهِيَ مُضْغٌ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ- أَقْسَى مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي، وَالْحِجَارَةِ الْقَاسِيَةِ! أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]؟! فَمَا بَالُ الْقُلُوبِ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- لَا تَلِينُ وَلَا تَخْشَعُ عِنْدَ سَمَاعِ آيَاتِ كِتَابِ اللَّهِ؟!

إِنَّهَا دَعْوَةُ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا -وَلَا سِيَّمَا حَمَلَةَ كِتَابِ اللَّهِ- أَنْ يَتَدَبَّرُوا كِتَابَ اللَّهِ، وَأَنْ يَسْتَلْهِمُوا مَا فِيهِ مِنَ الْعِبَرِ وَالْعِظَاتِ، وَأَنْ يَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، فَتَحَرَّكَ بِهِ قُلُوبُهُمْ، يَجِبُ أَنْ تُرَبَّى الْأَجْيَالُ وَتُنَشَأَ الْأُسُرُ عَلَى هَذَا الْمَنْهَجِ السَّلِيمِ؛ تَأْسِيًا بِسَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- بِإِحْلَاصٍ وَاحْتِسَابٍ، دُونَ تَصْنَعٍ وَتَزَلُّفٍ وَاحْتِرَافٍ، وَلِيَتَّقِيَ اللَّهُ مَنْ هَضَمَ حَقَّ كِتَابِ اللَّهِ، فَسَاوَاهُ بِغَيْرِهِ، وَلَا كَهْ بِلِسَانِهِ، هَذَا وَهَذَرْمَةٌ ^(١)، دُونَ تَدَبُّرٍ وَتَفَكُّرٍ.

يَقُولُ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « لَا تَهْدُّوا الْقُرْآنَ هَذَا الشَّعْرَ ^(٢) ، وَلَا تَشْرُوهُ نَثْرَ الدَّقْلِ ^(٣) ، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هُمْ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ ^(٤) ».

(١) الهَذَرْمَةُ: السرعة في الكلام والتخليط فيه . «النهاية» (هذرم) .

(٢) أي: لَا تَهْدُّوا الْقُرْآنَ هَذَا، فَتُسْرِعُوا فِيهِ كَمَا تُسْرِعُونَ فِي قِرَاءَةِ الشَّعْرِ .

وَالْهَذُّ: سُرْعَةُ الْقَطْعِ . «النهاية» (هذذ) .

(٣) الدَّقْل: رديء التَّمْرِ وَيَابِسُهُ ، وَمَا لَيْسَ لَهُ اسْمٌ خَاصٌ ، فَتَرَاهُ لِيُسِّسَهُ وَرِدَائَتَهُ لَا يَجْتَمِعُ ، وَيَكُونُ مَشْوَرًا . «النهاية» (دقل) .

(٤) رواه ابن أبي شيبه في «مصنفه» (٥٢١/٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٤١، ٢٠٤٢)،

يَا إِخْوَةَ الْإِسْلَامِ!

أَعِيدُوا لِكِتَابِ اللَّهِ حَقَّهُ، لَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، يُكْرِّرُهَا وَيَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى الصَّبَاحِ ^(١)، فَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ هَذَا الْمَنْهَجِ السَّيِّدِ؟!
أَمَّا الشَّارِدُونَ عَنِ الْقُرْآنِ، الْغَافِلُونَ عَنْهُ؛ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ، وَلْيَعُودُوا إِلَيْهِ؛ لِيَرْتَوْوا مِنْ نَمِيرِهِ، وَيَنْهَلُوا مِنْ مَعِينِهِ، فَهُوَ عِلَاجُ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ، وَجَلَاءُ صَدَّتْهَا - بِإِذْنِ اللَّهِ -

وَلَا بُدَّ مِنَ التَّذْكِيرِ بِمَا لِهَذَا الْكِتَابِ مِنْ مَكَانَةٍ، وَمَا يَجِبُ عَلَى الطُّلَابِ وَالْمُدْرَسِينَ وَأَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ مِنْ مَسْئُولِيَّةِ تَجَاهِ كِتَابِ اللَّهِ، تِلَاوَةً وَتَدْبِيرًا، وَتَطْبِيقًا وَتَرْبِيَةً؛ لِيَعْمَلَ الْجَمِيعُ قَدْرَ جُهِدِهِمْ عَلَى أَنْ يَكُونَ لِكِتَابِ اللَّهِ النَّصِيبُ الْأَكْبَرُ، وَالْحِظُّ الْأَوْفَرُ مِنَ الْأَوْقَاتِ، فِي ذَلِكَ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَالْخَيْرِ الْعَمِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُكَ وَخَاصَّتُكَ، اللَّهُمَّ ذَكَّرْنَا مِنْهُ مَا نُسِّينَا، وَعَلَّمْنَا مِنْهُ مَا جَهِلْنَا، وَارْزُقْنَا تِلَاوَتَهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِيكَ عَنَّا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَانْفَعْنَا بِمَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ.
أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، فَاسْتَغْفِرُوهُ؛ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

والبغوي في «تفسيره» (٢٥١ / ٨) .

^(١) انظر: «فضائل القرآن» لأبي عبيد ص ١٤٤، و«التيبان» للنووي ص ١١٢ .

الْخُطْبَةُ الثَّانِيَّةُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ، أَحْمَدُهُ تَعَالَى وَأَشْكُرُهُ، وَأَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْمَزِيدِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الْمُبْدِيُّ الْمُعِيدُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْرَفُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَفْضَلُ الرُّسُلِ، وَخُلَاصَةُ الْعَبِيدِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ، وَوَقْفَةُ آخِرَةٌ مَعَ خَوَاتِيمِ هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ، حَيْثُ تُمَثِّلُ الْخَاتِمَةُ إِيجَازًا لِمَوْضُوعَاتِ السُّورَةِ وَقَضَايَاهَا؛ مِنَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَمَرَاحِلِ الْخَلْقِ، وَمَصِيرِ الْخَلْقِ، وَأَهْوَالِ الْقِيَامَةِ، وَالْحُضُّصِ عَلَى الصَّبْرِ فِي تَبْلِيغِ هَذَا الدِّينِ، كُلِّ ذَلِكَ تَبَصُّرَةً وَذِكْرًا.

وَتَأْتِي خَاتِمَةُ الْخِتَامِ، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]؛ لِتُؤَكِّدَ أَنَّ التَّذْكِيرَ وَالدُّكْرَى لِمَنْ يَخَافُ الْوَعِيدَ فِي الْآخِرَى يَتَلَخَّصُ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَهِيَ دَعْوَةٌ لِلنَّاسِ عُمُومًا، وَلِلدَّعَاةِ خُصُوصًا أَنْ يَكُونَ مِحْوَرُ دَعْوَتِهِمْ مُرْتَكِزًا عَلَى هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَرَبِطِ النَّاسِ بِهِ عَلَى كُلِّ الْأَحْوَالِ وَفِي كُلِّ مَجَالٍ، فَفِيهِ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

هَذَا، وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ- عَلَى خَيْرِ رَسُولٍ أَنْزَلَ عَلَيْهِ خَيْرَ كِتَابٍ، كَمَا أَمَرَكُم بِذَلِكَ اللَّطِيفُ الْوَهَّابُ، فَقَالَ تَعَالَى قَوْلًا كَرِيمًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].